

عود على برء

بين الغرب والشرق

للدكتور اسماعيل أحمد آدم

- ٣ -

« قلنا في المقال الأول في الرد على مزاعم مناظرنا الفاضل الأستاذ فيلكس فارس إن لكل أمة في العالم روحها التي تحتضن تراثها التقليدي ، وعن طريق تحليل تراث مصر التقليدي انتهينا إلى أنها فرعونية آخذة بأسباب العربية لتجارى فن الحياة في ذلك العصر الذي طنت فيه العربية على كل شيء وكانت مركزاً للجذب الاجتماعي في الشرق الأدنى .

وفي المقال الثاني بينا الفروق الأساسية بين ما سميناه ذهنية للغرب وطاباً للشرق ، وقلنا إن نزعة الذهن الغربي عقلية ونزعة العقلية الشرقية غيبية ، واستدلنا على هذا الحقيقة من حقائق التاريخ ، واستشهدنا بكلام الأديب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم . ولهمنا قلنا إنه من الصعوبة بمكان أن تأخذ مصر الثقافة الغربية وهي محفظة بثقافتها التقليدية وأساسها الإيمان بالنيب . وقد قرأ قراء « الرسالة » من الأدب المحي في الشرق العربي رد مناظرنا الفاضل على ما قلناه في عددي الرسالة ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، لهذا اضطررنا أن نعيد الكرة من جديد لسحق ما أثاره الناظر الفاضل من اعتراضات . ولن نعيد في ردنا على الناظر بما جاء في كلامه ، وإنما سنرجع لكتاب رسالة للنير إلى الشرق العربي فهو لأجل الناظر في الإيمان بثقافة الشرق »

يقول الأديب النابغة فيلكس فارس :

« الثقافة راسخة في الفطرة ، والفطرة في الفرد كما هي في الأمم ميزة خاصة في الذوق واختصاص في فهم الحياة والتمتع بها ، فإذا كان العقل رائداً لبلوغ الحاجة فليست للفطرة إلا القوة المتمتة في الانسان بتلك الحاجة بمد بلوغه إياها »

هذا ... ونحن نفرق بين الثقافة والفطرة، بين تراث الشعب الذي يخرج به من ماضيه انسلالا على مدى الدهور والأعوام ، وبين الفطرة من حيث هي روح الأمة التي تحتضن تراثها. فتراث مصر الفرعونية التي أسلته لمصر الإسلامية فاختلفت نتيجة ذلك الفرعونية والعربية فكان من ذلك ما سميناه لمصر من ثقافة تقليدية شيء والروح المصرية شيء آخر . إلا أن هذا لا يمنع من

أن ترسخ الثقافة التقليدية وتصبح وكأنها من صميم فطرة الشعب . وأنسلاخ الشعب عن ثقافته التقليدية ، وإن كان لها رجة في صميم الفطرة والروح إلا أنها لا تعني انسلاخ الشعب عن روحه وفطرته . وما ثقافة الشعب وتراثه إلا أثر وقوع الفطرة والروح تحت تأثير ظروف ومؤثرات تجدد طريقها للمحيط الاجتماعي والبيئة الطبيعية للشعب . بيان ذلك أن الروح المصرية تحتفظ بذاتها منصبة في قوالب شتى ، فهي في قالب في العصر الفرعوني ، وهي في قالب في العصر الإسلامي ، وجماع هذه القوالب المختلفة يكافئ الحالات الثابتة التي يتضمنها المحيط اجتماعياً وطبيعياً . وإنكار هذا معناه أن الروح المصرية تغيرت من العصر الفرعوني إلى صورة أخرى في العصر الإسلامي . فما الذي يمنع أن تتغير إلى صورة أخرى في العصر الحديث ؟ ولعمري هذا لا يتفق مع ما يعرف من قواعد الاجتماع وعلم تكون الشعوب ، لأن روح الشعب شيء مجرد ، يكتسب عن طريق وقوعه تحت تأثير القوالب الاجتماعية والطبيعية خصائص متباينة شكلاً وإن كانت متفقة روحاً

من هذا أرى أنه من الضروري التفرقة بين روح الأمة من جهة ، وثقافتها وتراثها الشعبي من جهة أخرى ، وإذا أياً يكون من الممكن لمصر أن تتجرد عن ثقافتها التقليدية ، وتستبدل مثلاً بدنياً دينياً آخر وبلقها لثة أخرى كما حدث ذلك في عهد الفتح العربي ومع ذلك تحتفظ مصر بروحها وفطرتها ، لأن ما ستأخذه الروح من القوالب سيكون عن طريق الوقوع تحت تأثير عوامل ومؤثرات وجدت طريقها للمحيط الاجتماعي والطبيعي ، ويكون بذلك صور متباينة تأخذها فطرة الشعب ، أو بمعنى آخر قوالب شتى ، غير أن قانون المادة يدخل لاستحداث الماتلة في عقل ومشاعر الشعب فيكون من ذلك تماثل الثقافة التقليدية الجديدة في سريرة كل فرد من أبناء الشعب

على هذا الوجه فقط يمكن تحليل تفسير الغالب العربي للروح المصرية والذي تكون نتيجة لوقوع الروح المصرية تحت تأثير الثقافة العربية . وعلى نفس الوجه يمكن تفسير وجه قيام الثقافة الغربية في مصر مع احتفاظ مصر بروحها وفطرتها .

وأظن أن هذا الايضاح كافٍ يقطع السبيل على كل اعتراض يمكن توجيهه من أن الثقافة الغربية لا تتفق والروح المصرية .

(إن كل فكرتنا الأولية ومدركنا وكل فروع معرفتنا لا بد من أن تمر على النوال بثلاث حالات مختلفة : الأولى الحالة الخرافية وهي حالة تصورية تخيلية ، والثانية الحالة النيبية وهي حال مجرد ، والثالثة الحالة اليقينية وهي حالة تيقن)
ومع ذلك مجادلنا المناظر فليكس فارس مرجحاً الحالة النيبية وهذا قلب لقانون الدرجات الثلاث !

- ٣ - يرى المناظر متابعة لاعتماده برجعان الحالة النيبية أن ميزة الشرق هي في الحالة النيبية وفي إيمانه بالنيبات . وهذا القول لو صدر من شخص ليس في مكانة مناظرنا الأستاذ فليكس فارس - وهو على علم واسع وفضل راجح - لما اهتمنا له . ولكن صدوره من مناظرنا يجعله حدث الأحداث في عصرنا الزاهر وإذا كان وقوف الشرق عند الدرجة الثانية في سلم الارتقاء العقلي سبباً للاعتقاد بتفوق هذه الدرجة على ما بعدها ، فإذا يكون موقف مناظرنا إزاء أحد الأزوج أو متوحش أفريقيا إن وقف يرجح الحالة المعجبية والحالة الخرافية اعتقاداً منه بتفوقها على ما فوقها ، وقال لنا مناظرنا ما يقوله هو لنا ؟ إذن ماذا يكون منه الجواب ؟

٤ - إن قول المناظر برجعان الحالة النيبية على الحالة اليقينية وإن كانت ظاهرة البطلان إلا أن هذا البطلان لا يمتنا عن مناقشتها حتى لا يظن مناظرنا أن كلامه حق يلو على التجريح والنقد

- يقول العالم الياباني « موريكافو إيناجاكي » إن في كل عنصر بشري ، اعتماداً لأن يظن في نفسه الكمال . وينبت هذا العالم هذه الحقيقة من حقائق علم النفس والانسان . وفي ضوء هذا القول نفهم اعتقاد مناظرنا برجعان ثقافة الشرق النيبية ، ولكن ما هي الأسباب العلمية والفلسفية التي يبررها المناظر لإيمانه بتفوق ثقافة الشرق النيبية ؟

بحثت كثيراً في كلام المناظر وفتشت بين السطور عن الأسباب العلمية لإيمانه بتفوق ثقافة الشرق النيبية ، ولكن بلا جدوى . فرجعت لكتابه « رسالة المنبر إلى الشرق العربي » فلم أخرج بنبر « قانون الرجبي » سبباً في تفوق ثقافة الشرق النيبية !

وكل الخلاف على ما يتبين أخيراً راجع إلى عدم التفرق بين الثقافة التقليدية والروح ، فمتى ما يقوم أنصار الثقافة الغربية بدعوة إلى مدينة الغرب بثور عليهم أنصار الثقافة العربية قائلين إن معنى ذلك ضياع الروح المصرية والقومية ، مع أن الروح شيء ثابت والثقافة شيء عرضي يتقوم بالروح وفطرة الشعب . والآن لتتمش مع كلام المناظر في رده ولنتمقب عليه بما يكفي لظهار زيفه وبيان وجه بطلانه .

١ - قلنا في صدر كلامنا في المقال الأول في الرد على مزاعم مناظرنا الفاضل كلمة عن هابل آدم بك الفيلسوف الاجتماعي المعروف . والكلام واضح بين في أننا يحكم كوننا في الحياة يجب أن تفكر فيها وحدها وأن نعمل لأجلها واقامتها على أساس انساني بدون أن نجعل للثيب سبيلاً للتدخل فيها . وهذه الكلمة تنجلي في صدر الحديث النبوي : « اعمل لديناك كأنك تمشي أبداً » . ومع ذلك رأى المناظر فيها غموضاً وحاول أن يتمسف بتأويل الكلام إلى أن معناه إنكار الآخرة . وقال وابن مجيز الحديث : « واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »

يا صديقي ليس هكذا يكون الكلام !

قد يكون بدوياً في طريق الله ونهايتنا في طريق الله ، لكن « الوسط مدرجة بيوتنا ومصانمتنا وحوانيتنا ، وبكلمة أخرى طريق بمعنىنا إلى البعض » يجب أن يكون مبدؤها ومردها الأول والأخير عندنا ، حيث يقوم العقل الانساني بتنظيم الحياة البشرية هذا هو حقيقة كلام هابل آدم في ضوء تحليل مدلول عبارته التي استعمل بها كتابه الخالد « مصطفي كمال للترك كتابي » التي ترجم لأكثر اللغات الحية وتقل ملخصاً إلى العربية بقلم صديقنا الأستاذ اسماعيل مظهر عن ترجمته الانجليزية .

٢ - قلنا إن موضوع الخلاف بين ثقافة الغرب وثقافة الشرق يرجع إلى كون الثقافة الشرقية وقعت عند حدود الدرجة الثانية في سلم الارتقاء العقلي بمكس الثقافة الغربية فأنها اجتازت هذه الدرجة إلى التي بعدها . ولا أدل على ذلك من بعض المراجعة لثقافة كل من الشرق والغرب في ضوء قانون الدرجات الثلاث الذي كشف عنه أوغست كونت

يقول أوغست كونت :

ولما كانت هذه الأفعال تقوى وتضمحل وتضعف وتتغير باضمحلال
الوثرات وتغيرها ، فإن مراكزها في الكرات النصفية الخفية
تكون قابلة لدرجة قليلة أو كبيرة لأن كان تكون الانعكاسات
المؤصلة حيث تعتمد في قوتها على التكرار الاصطناعي كما أن
ضئف أواصر التلازم أو تقطعها يؤدي إلى ضمف الانعكاس
المؤصل أو اضمحلاله . غير أنه يعود بصورة أيسر لأنه يكون قد
ترك أثرأ في الحى من حالته الأولى الارتفاقية . وهذه الحقائق
بإتباتها ديناميكية خاصة للنفس وساحة لا شعورية تبين إلى أى
حد قد جانب الناظر في كلامه حقائق العلم . لأن الحوافز التي بالأحياء
نتيجة للارتباط الارتفاقي بين الأفعال المسكية الأصيلة والمؤصلة
وليست نتيجة للوراثة . وهذا لا يمنع أن الانسان يولد في تضاعيف
تلافيف غمغمة ، وفي ثنايا أنصاف كراهة الخفية ، وفي لحائها ، وفي مراكز
أعصابه ميول وكفايات امكان لبعض الأفعال المؤصلة . والانسان
بمخروجه لعالم الحياة يكون جهازه العصبي في طور نمو وتكوين
إذ تسيطر عليه الأفعال المكسبة سيطرة مطلقة ، وهذه الأفعال
مجردة . . . ويكون للموثرات التي تلابس الانسان أثرأ في
أن يحدث استجابات تكون مقدمة لفعل عكسي مؤصل . فإذن
العلاقة بين ما هو كائن في النفس عن طريق الوراثة لا تعدى
الامكان المحض . وهو تحت تأثير الوثرات يظهر مصحوباً به .
فلاعتقاد بوجود أساس وراثي يرثه الانسان ويتركب عليه مكتسباته
لا تعدى هذه الحقيقة . وهو لا يثبت دعوى أن اللاواعية
أو العقل الباطن يحتوى على الحوافز المتوارثة عن الأجداد

فاذا لاحظنا هذا كله وجدنا أن المحيط الاجتماعي وما
يمرض له من العوامل والوثرات الأثرالأ كبرى في تكوين الانسان
على غرار معين . . . وإذا يكون التجاء الناظر إلى الوراثة والحوافز
المتوارثة عن الأجداد — وهي حالات إمكان في النفس — خطأ
من الناحية العلمية ، ويكون بالنسبة اعتقاده في سلامة وسعادة
المجتمع لما فطر عليه من الحوافز للمتوارثة خطأ . والمصحح
أن يقال إن الانسان من حيث يولد وهو طفل وأفضاله المكسبة
المؤصلة هي التي تستحكم في جهازه العصبي ، وبتمبير أدق غيرها ،
يكون مطواعاً للموثرات التي يحتويها محيطه الطبيعي والاجتماعي ،
ويخرج مصحوباً في قالب معين يكافئ الحالات التي أحاطته . ونظراً
لأن المحيط الطبيعي والاجتماعي مادة واحد في الحالات الاعتيادية

يرى الناظر أن العلم الحديث أكد وجود قوة مستترة في
الانسان أسماها العقل الباطن ، وهي مستودع الفطرة والانطباعات
السابقة ، وهي نفسها تسمى الآن مثلبسة بمظهر الاختيار . وما العقل
الباطن كما دلت التجارب إلا الحوافز التي وجدت في الأجداد
ونمت على اتجاه مقدور أيضاً زمن الطفولة . وهذه الحوافز تكمن
فيها فطرة الأمم لأنها أداة شعورها بالحياة . ومادام الأمر كذلك
فهو يرى أن سعادة المجتمع العربي في ملامته لا فطر عليه هي
الغيبات لأنها استلهاهم للروح العليا

كلام كما تراه يحترمه التناقض ومجانبة الحقائق . ومع ذلك
فلننظر فيه

من المعلوم أن الانسان يتكوينه الطبيعي يستجيب للموثرات
الداخلية والخارجية استجابة ذاتية Spontaneous response
وهذه الاستجابة مرتبطة فيه بأنصاف الكرات الخفية التي هي
أعضاء رد الفعل في الانسان . وترتبط بهذه الأنصاف الكروية
الخفية الوراثة والعقل الباطن . بيان ذلك أننا لو أتينا بكعب ووضعنا
أمامه قطعة من الحلوى فإن لماب الكعب يسيل . هذه الظاهرة
تحدث بتأثر ذاتي في الكعب ومن غير أن يكون للتجربة يد في
تفسيره أو تكوينه ؛ ومن هنا نعتبر عملاً عكسياً أصيلاً . وهذه
الأفعال للمكسبة الأصيلة هي ما كنا نسميها من قبل بالفرائز .
فالفرائز مجموعة من الأفعال المكسبة متدغم بعضها في بعض كما هو
الحال في غريزة بناء الطيور لأعشاشها . غير أن هذا الفعل المكسبي
الأصيل وإن كان يحدث بقاسر ذاتي في الأحياء المضوية لا يتغير
فإن ذلك وقف على الأحياء الدنيا . أما في الأحياء العليا في سلم
الملكية الحيوانية فإن سلوك هذه الحيوانات وإن كان مرتكزاً
على استجاباتها بقواسر ذاتية للموثرات فإنها تستفيد من التجارب ،
إذ تترك التجارب أثرأ بيناً في سلوكها . والانسان كأحد أصناف
الملكية الحيوانية العليا يخضع لنفس هذه السن . والأفعال
المكسبة المستفادة من التجارب مؤصلة لأنها مكتسبة بكتسبها
الحى من ظروف حياته كنتيجة لما يلابسه من موثرات ؛ وهذه
الأفعال تحتق وتضمحل إذا ما تنابرت الوثرات . ولما كانت
الأفعال للمكسبة في الأصل تحدث بقاسر ذاتي مصحوبة بمحركة
افضالية جاز لنا أن نعتبر الأفعال للمكسبة المؤصلة — وهي المستفادة
من التجارب — كنمو ارتفاق في الأفعال المكسبة الأصيلة .

كتاب المبشرين الطاعن في عربية القرآن

اسلم مصرى أم مبشر برونسنتى؟

لأستاذ جليل

— ١ —

اقترحت وزارة المعارف المصرية ذاك المقترح في تيسير
(القواعد) ، وأعلن أولئك الفضلاء (الميسرون) منهجهم ،
فقال قائلون من العلماء لما رأوه : إن هذا التيسير تسير ، وإنما
تسهيل القوم تصيب . وتجادل الفريقان في الجرائد والمجلات
والكراريس . و (كتاب العربية) يقول : «فأما الزبد فيذهب
جفاءً وأما ما ينفع للناس فيمكث في الأرض»
والعربية هي كسائر اللغات وليست بأسمين ، وإن نحوها
— وإن لطفت دقائقه وجلت حقائقه — إلا كنعوهن

وليست المشكلة في صعوبة اللغة أو سهولتها ولا في (قاعدتها)
وإنما هي في (العلم والكتاب) فهما اللذان يسهلان ويصعبان ،
وهما اللذان يهديان ويضلان ، وهما اللذان يجيبان إلى الفتى لفته
أو يكرهان . فالمضلة كل المضلة هي في العلم وعلمه وتعليمه
وكتاب كل صف من الصفوف وتبويبه وترتيبه وتبينه . ولو
غزت الوزارة هذين لقرطست

ومن ظن أو أيقن أن تقريب العربية أو تسهيلها هو في تهديم
قواعد فيها — فهو مهوس يهذي ، أو موسوس يلفو . وليست
اللغة العربية ملك كاتب أو كويكب ، أو أديب أو أديب ، أو عالم
أو عوبل ، حتى يتصرف فيها تصرف المملكين ، كلا ، ثم كلا .
إنها تراث قرون وملك أم ، فأين يذهب بك يا لاهيون ؟

واللغات في المشارق والمغرب إنما يقدم فيها ويؤخر ، ويبنى
ويصلن ، وينقص أو يزيد ، ويحيا أو يبيد — فانه لا يفعل ذلك إلا
الاحتياج الطبيعي أو الانتخاب الطبيعي (La sélection naturelle)
وإلا الدهر ، لا اللاعب العايب ولا الجاهل الثمر . ولقد كان التبديل

فإن المؤثرات تكون واحدة ، ومن هنا يخرج الناس في قبيل معين
وجيل معين مصبوبين في قالب معين . وقانون المادة يتدخل
لاحداث المائلة في القالب المصبوب فيه القبيل حتى ينتهي لذلك .
أما في الحالات التي تكون فيها المؤثرات في المحيط الاجتماعي
متباينة ، فإن القبيل يخرج في قوالب شتى جاءها يكافئ الحالات
التي يتضمنها المحيط الاجتماعي ، وهذا ما هو حادث اليوم في مصر .
فإن أهل المدن من الطبقة المتوسطة وفوق المتوسطة يعيشون على
غرار غربي ، لأن العوامل التي في محيطهم الاجتماعي متأثرة بالروح
الأوربية ، بعكس أهل الريف الذين يعيشون على غرار شرقي .
وهذا الانقسام في المجتمع المصري ملحوظ للنظر .

وإذن تكون نقطة الخطأ في كلام الناظر ، بل الخطأ الأساسي
هو إغفاله للمؤثرات الطارئة التي تدخل في المحيط الاجتماعي ، وتؤثر
في المجموع الانساني ، وتصيبهم في قوالب جديدة تكافئ المحيط
الاجتماعي في الصورة الجديدة التي أخذها بالمؤثرات التي طرأت
عليه . وهذه الحقيقة تدلنا من نظرة سريعة في كتاب «رسالة
المنبر إلى الشرق العربي» .

ولقد كشفنا عن هذه الحقيقة في النقد الذي كتبناه في مجلة
«المصبة الأندلسية» في عددي فبراير ومارس سنة ١٩٣٨ .
لكتابنا ، وهي تبين أن الناظر يعمى في كلامه متفلاً شأن العوامل
والمؤثرات التي تجد طريقها إلى المحيط الاجتماعي للشرق العربي .
ومن هنا نرى أن الشرق العربي شاء أو لم يشأ مفكروه سيمضى
في سلسلة من التناثرات حتى ينتهي إلى أن يحوز الكفاية
للمؤثرات التي دخلت محيطه .

اسماعيل احمد أوهم

«اسكندرية»

أغلب مؤلفات
الاستاذ الأستاذ شبيب
وكتابه
الاسلام الصحيح

من مكتبة الرشد ، شارع الفلكي لا بلالبره ،
دمشق ، الكليات العربية الشرقية